مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء ٨ آب سنة ١٩٢١ م الموافق ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٣٩ هـ المجلد ١

بماذا يكون انتظام المجتمع الانساني

القيت من قبل حضرة الاستاذ صاحب الامضاء في بهو المجمع العلمي في ٨ تموز سنة ٩٢١

ايها السادة الكرام والاخوة الاعزاء والابناء البررة !

قيض لي حسن الحظ ان اقف هذا الموقف بينكم مذكراً لا مرشداً اذ فيكم من رئيس المجمع الفاضل وزملائي الافاضل من لا استغني عن الاقتباس من انوار علمه فاضرع الى آدابكم ومكارمكم ان تسبلوا ذيل الصفح عما سترونه من هفوات دعا اليها تشعب مسائل الموضوع الذي توخيته (وما تشعب تصعب) واستدعاؤه بحثاً اكثر ووقتاً أوسع والله اسأل و بنبيه الاكرم صلى الله عليه وسلم اتوسل ان يأخذ بيدنا جميعاً لانهاض هـذا الوطن من كبوته وما ذلك على الله بعزيز ان صدقت النيات واتجدت القلوب وعرفنا الحق لاهله ووضعنا كل شيء في محله .

ان الله تعالى خلق الخلق محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون منفرداً بالغنى مختصاً بالقدرة وجعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته به صفة قائمة في جوهره قال تعالى (وخُلق الانسان ضعيفا) يعني عن الصبر عما هو مفتقر اليه واحتمال ما هو عنه عاجز .

ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لاحتياجه الى اشياء استغني عنها غيره وهي الملبس والمسكن اللذان استغني عنهما اكثر الحيوانات ان لم نقل كلها والمطعم الذي لا يتناوله الانسان الا بعد اجهاد عدة صناع فيه انفسهم ومزاولة عدة صناعات قيل الانسان مدني بالطبع اي انه لا يقوم بحاجياته بنفسه بل يحتاج الى مدينة اي مجتمع تتوفر فيه حاجياته وقد جعله الله تعالى بهذه الصفة نعمة منه عليه ولطفاً به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز مانعين له من طغيان الغنى وبغي القدرة لان الطغيان مركوز في طبعه اذا استغنى والبغي مستول عليه اذا قدر قال تعالى (ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) وقال عنه (انه كان ظلوماً جهولا) (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) .

ثم انه جل وعلا جعل لنيل الانسان حاجته اسباباً ولدفع عجزه حيلة دله عليها بما وهبه من نعمة العقل وارشده اليها بالفطنة وانعم الله على الناس بما اودعه في الارض من الخيرات حيث قال خلق لكم ما في الارض جميعاً فوجب ان يكون سكانها على حالة رضية من الانصاف وحسن العشرة والمودة والمعاونة واسداء المعروف واحتمال الاذى فانهم ان لم يكونوا كذلك ضاع ما أُودعوه من تلك الخيرات او اختص به بعضهم دون الآخر فضاع العدل والانصاف وفقدت الالفة والانتظام وهما زينة المجتمع الانساني .

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

ثم اودع فيهم غرائز التزموا بطبعهم المحافظة عليها مثل الغيرة والاباء وحب الاثرة وهي مراكب جماحة ان لم تلجم وتروض فشرع عز وجل الشرائع على لسان رسله الكرام لمحافظة هذا المجتمع من الفساد والاختلال فكانت زبدة ما امرت به من اساسيات الانتظام المحافظة على خمسة اشياء واصلاحها وهي (١) الدين (٢) النفوس (٣) العقول (٤) الانساب (٥) الاموال فافساد الدين بالكفر والبدع والاهواء المضلة . وافساد النفوس بالقتل او قطع او تعطيل بعض الاعضاء او منافعها . وافساد العقول بشرب المسكرات او تضليل الغير على ارتكاب ما يمس دينه او شرفه . وافساد الانساب بالاقدام على الزنا فانه يضيعها . او بعقوق الوالدين وقطع الارحام فانهما يضيعان ثمرتها من التناصر والتوادّ . وافساد الاموال بالغصب والسرقة والرشوة وكذا اخذها بالغش واصناف الحيل

وكل وجه غير مشروع . ويدخل في ذلك اغتصاب المنفعة كانواع السخرة وعدم تأدية الاجير اجره فان المنفعة متقومة .

ومن قارن بين قول التوراة (انا الرب الهك الذي اخرجك من ارض مصر لا يكن لك آلهة اخرى امامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء مما تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لا تنطق باسم الرب الهك باطلاً اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد شهادة زور لا تشته بيت قريبك الخ) . وبين قوله تعالى في القرآن (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن واوفوا الكيل والميزان بالقسط واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

علم ان اساس الاديان في تنظيم الهيئة الاجتماعية واحد بدليل قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فكما علم ان للهيئة الاجتماعية حقوقاً ونظاماً ينبغي ان يعلم ان لكل فرد منها كذلك حقوقاً ونظاماً ولتبين ذلك اجمالاً لان تفصيله يحتاج الى مجلدات اذ هو زبدة الشرائع والمقصود بالذات منها اما صلاح المجتمع وانتظامه باسره فلدى الاستقراء وجد في ستة اشياء (١) دين متبع (٢) سلطان قاهر (٣) عدل شامل (٤) امن عام (٥) خصب دائم (٦) امل فسيح أولها الدين الحقيقي لانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن ارادتها حتى يصير زاجراً للضمائر رقيباً على النفوس . وهذه الصفات لا يتوصل اليها بغير الدين ولا تعيش امة عزيزة كريمة بغير آداب ولا فضائل ولا يمكن ان تبنى الفضائل على غير قواعد الدين فالدين هو مقلل الشرور واقوى روابط الاجتماع التي قيل انها الدين واللغة والوطن والنسب وانا ازيد عليها المشاكلة في الطباع فلا يصحب الانسان الا شبيهه وان لم يكونا من قبيل ولا بلد

لكن تلك الروابط لا تنتظم بدونه وهو اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعاً في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه حتى لا تختلف بهم الآراء وتتصرف بهم الاهواء ومن هنا قيل وهو الصحيح ان الحسن ما حسنته الشرائع والقبيح ما قبحته خلافاً لمن حكم العقل في التحسين والتقبيح .

نعم ان العقول قد تقضي باشياء حسنة غير انها لا تهتدي لمعرفة الحسن حقيقة بدون شريعة الا مصادفة والغالب ان ما يأتي به من عندها لا يجمع عليه نظراً لتفاوت العقول واعجاب كل امرئ برأيه فقد روى التاريخ ان شون احد ملوك الصين الذي كان في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وضع لامته خمس قواعد تتضمن الواجبات المتعينة على كل من الآباء والابناء والملك والرعايا والشيوخ والشبان والزوج والزوجة والصديق وصديقه ولم يبين لنا التاريخ تفصيل ذلك وكيفما كان الحال فلا بد ان يكون في بعضها مخالفة للشرائع فان من المعمول به عندهم للآن انه اذا مات احد الزوجين أُلحق به الآخر حرقاً حتى لا يفترقا ثم وجد في تلك الامة كونفوشيوس الحكيم سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد فجعل النواميس الاساسية ثلاثة وقال انها التي تقوم عليها الصلات بين الحاكم والرعية والاب والابن والرجل والمرأة وقال ان الفضائل الاصلية خمس وهي محبة الانسان لابناء جنسه بدون تمييز بينهم والعدل اي اعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لاحد على آخر والمحافظة على العادات التي رسخت والاديان التي أمرنا بها حتى لا تكون للامة الا حالة معاشية واحدة يستوي الناس في التمتع بحسناتها و يتشاطرون سيئاتها ونكدها والاستقامة وفسرها بطلب الحقيقة بلا تضليل ولا خداع والصدق وفسره بالاستقامة في السلوك والخطاب اه

فانت ترى ان حكمه بان تكون للامة حالة معايشية واحدة مع خروجه عن دائرة الامكان مخالف لكل الشرائع فان اختلاف المعيشة امر لا بد منه بمقتضى نظام الكون اذ هو من ادل الدلائل على قدرة الخالق الحكيم وقد ورد في القرآن (نحن قسمنا بينهم معيشتهم وفضل بعضكم على بعض في الرزق) ولم تزل تعاليم هذا الحكيم الى الآن حية بين قومه وعليها مدار نظامات الصين ولا بد لكل طالب علم عندهم ان يستظهرها

لينال في الامتحان الشهادة التي تخوله حق الدخول في الوظائف فياحبذا لو نقتدي بهم الآن في جعل الاخلاق علماً وعملاً من شروط نيل الوظائف . ثم انظروا حفظكم الله الى شرائع ما نو الهندي الذي يعتقد فيه الهنود انه الاب العام للبشر وهي منظومة في ٥٣٧٠ بيتاً من الشعر تنقسم الى ١٢ باباً تحتوي على عدة اشياء منها المبادئ التي يجب ان يجري عليها الفرد والاسرة والمدينة وواجبات الامراء واهل كل من الطبقات المختلفة والنظام المدني والعسكري ولخص ذلك كله بقاعدتين احداهما تقضي على الامة بخضوع طبقاتها بعضها لبعض وثانيتهما تقضي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية ، وجعل الامة اربع طبقات الكهان والعسكر والفلاحون مع التجار والمحترفون مع الاسرى والمغلوبين وجعل السيادة للطبقات الثلاث الاولى فيحظر عليها مصاهرة الطبقة الرابعة ثم وجد في القرن السادس قبل الميلاد رجل يدعى ساكيموني و يلقب ببوذا فنقض هذا الاساس وجاهر بان الناس امام الشرائع الادبية متساوون وان الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما يقوم به من الشعائر الدينية وان كل امرئ من اي طبقة كانت يحصل بتقواه وفضله على النجاة وان للانسان مكملات ستاً وهي العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطهارة وحب الناس والصبر والبراءة . فانظروا كيف خالف هذا من قبله لتفاوت عقل الرجلين اما الشرع فلكونه وضعاً الهياً يكون نظامه مطرداً مقبولاً والدليل ايضا على ما قدمناه ما كان عليه الفلاسفة الاقدمون الذين زعموا ان الرياضة توصل الى درجة النبوة وان النبوة مكتسبة من الاخلاق السافلة التي ينفر منها الطبع السليم فان منهم طائفة تسمى الكلبية رئيسها انتشيونس ثم تليذه ديوجانس كانت ترى حب اقاربها واخوانها وبغض غيرهم من سائر الناس وترى التغوط في الطرقات بلاستار فلقبهم الناس بالكلبيين لان خلقهم خلق الكلاب . ومن آراء ديوجانس انه اذ احتاج الانسان الى شيء واخذه فلا تثريب عليه وكان يرى ان الحياء من ضعف النفس ولذا كان لا يستحي من فعل قبيح الاشياء امام الناس .

هذه الامم الثلاث الصين والهند واليونان العريقة في الوجود وهذه قوانينها التي لم تستند الى شرع سماوي ولو اردنا تعداد آراء الفلاسفة الذين لم يأخذوا العلم والمدنية من طريق الدين لضاق بنا المجال و يكفي ان منهم الدهريين الذين لم تهدهم عقولهم الى

معرفة الصانع ووجوده فجحدوه والطبيعيين الذين بحثوا عن افعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فحصل من هـذا ان العقل وحده غير كاف في الوصول الى معرفة الحسن والقبيح بل لا بد له من دين يعدل سيره . اما كيفية تعليم الدين الصحيح الذي لبابه الاخلاق الفاضلة فهي عقدة العقد وبها صلح ما صلح وفسد ما فسد اذ هي الاساس لما نحن بصدده فان كثيراً ممن تصدى لذلك افسد اكثر مما اصلح وذلك لسببين اولهما انه ادخل في الدين ما ليس منه مما لا يثبت على محك الانتقاد من خرافات لا يقبلها العقل ولا يؤيدها صحيح النقل فكانت في دماغ مبتدعها ذرة صغيرة ولما انتقلت الى فضاء ارض المتعلم الساذج باضت وفرخت وهكذا يزداد نتاجها كلما زرعت في محل فيه قابلية لنمو الترهات ثم انه موه على العامة بتخشع كاذب وورع مصنوع حتى اعتقدت حجية قوله وهيهات من أوتي سحر هاروت وماروت ان يزيل ما علق باذهانهم من خزعبلاته وهنا يجب ان نبين بقليل من الايضاح فساد حال من هذه حاله ، ان من ظن الزهد التمنع عن اكل المشتهى اللذيذ الحلال فقد قنط لان الله تعالى خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال (يا ايها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) والطيبات هي الحلال . واصرح من ذلك قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) فمن فعل ذلك معتقداً انه من الدين فقد ضل واضل وبعضهم يلبس لباساً زرياً تقشفاً ويتخشع في مشيته تصنعاً مع ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشي كمن ينحط من صبب (اي علو) ورأت عائشة رجلاً متصفاً بهذه الصفة فقالت ماهذا استهجاناً لحالته فقيل لها هذا زاهد فقالت سبحان الله اهو ازهد من عمر وكان اذا مشى اسرع واذا ضرب اوجع .

والسبب الثاني عدم تمكنه في العلم فيتصدى للتعليم الذي يحتاجه هو ويتزيا بزي من تزويق لباسه واتقان هندامه ظناً منه ان العلم عبارة عن ذلك ولم يعلم ان العلم الناقص شر من الجهل التام لانه يدعو صاحبه الى ان يفتي بغير علم حذراً من ان يقال عنه انه جاهل وربما حابى الامراء او الاغنياء فافتاهم بما يشتهون مما لا يعرفه الدين اذ لم يكن عالماً حقاً حتى يردعه علمه عن زخرف القول ومنكره وهناك سبب آخر وهو عدم العمل

بمقتضيات الدين فالعمل في المعلم من موجبات تأثير العلم في المتعلم وقد قيل الواعظ من يعظ بفعله لا بقوله فمتى اتفقت هذه الاسباب حصلت ثمرة التعليم وهي الاخلاق الفاضلة وتتأصل في النفس فتكون زاجراً قوياً لها عن ارتكاب ما لا يليق وهذا الزاجر هو المراد بقول من قال :

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وانما كان التلقين بهذه المثابة من الاهمية لانه الاكسير الذي تنقلب به الاعيان وتتحول به الاحوال لان الافعال دائماً آثار الافكار والافكار دائماً آثار الكلام فالكلام الواصل الى النفوس ان كان خيراً كانت الافكار خيراً فكانت الافعال خيراً وبالعكس ، فالكلام هو الاصل في الاشياء ومبدؤها وهو الذي يأخذ القلوب يميناً وشمالاً . واني لاعجب ممن قال ان الاخلاق لا تتغير والواقع يدل على خلافه لاننا نشاهد الحيوان الوحشي يخرج عن طبعه بالتهذيب فهذا البازي يصير طوع الانسان يأمره فيأتمر وينهاه فينتهي وهكذا الفرس الجموح او الحرون تتبدل صفاتها بالمعالجة ولولا ان ذلك حاصل لما ارسل الله الرسل بالشرائع فيها الامر بالحسن والنهي عن القبيح وترتيب الثواب والعقاب على الاخلاق حسناً وقبحاً .

ويا حبذا لو اعتنى اولوا الامر بمنع دجالي هذه الصنعة اشد من اهتمامهم بمنع الطرقية من دجالي الطب فالضرر هنا اشد لان طبيب الاجسام الجاهل ربما ساعدته المصادفة على شفاء من يطببه اما طبيب العقول فلا شبهة في انه يودي بحياة مريضه الادبية ويوصله الى شقاء دائم في الآخرة .

والثاني من الستة التي بها صلاح المجتمع الانساني سلطان اي ذو سلطة قاهر تتألف من خوفه الاهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي المتغالبة وتمتنع من خوفه النفوس العادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما احبوه والقهر لمن عاندوه ما لا ينفكون عنه الا بمانع قوي ورادع ذي سطوة وهو الذي يحمي الدين والعلم ويدعو بسطوته الى اتباعهما ولذلك قيل ما يزع السلطان اكثر مما يزع القرآن وقال تعالى (لانتم اشد رهبة في صدورهم من الله) فهو القائم على صون الاخلاق ان تفسد والحافظ على صلاحها .

والثالث من الستة عدل شامل يدعو الى الالفة و يبعث على الطاعة وتنمو به الاموال و يكثر به النسل و يعم به الامن الممالك والمملوك فقد قال الهرمزان لعمر بن الخطاب لما رآه نائماً في المسجد بلا غطاء ولا وطاء فضلاً عن الحرس والحجاب : عدلت فأمنت فنمت . وامهات العدل ثلاث عدل الرئيس مع من في حوزته و يكون بعدم اعتنائهم وترك التسلط عليهم بالقوة وعدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع حاكمها والمرؤوس مع رئيسه وهو يكون باخلاص الطاعة و بذل النصرة وصدق الولاء وعدل الانسان مع اكفائه و يكون بترك الاستطالة عليهم ومجانبة الادلال و كف الاذى فهذه الامور ان لم تكن في الاكفاء تقاطعوا تقاطع الاعداء فتفسدوا وافسدوا والعدل لازم للانسان ايضاً في نفسه بان يحافظ على صحته بعدم تعاطي ما يضعفها و يعمل صالحاً حتى لا يكون معذباً في الآخرة ومن حملها شيئاً من الجرائم فقد ظلمها اذ سبب لها العذاب في الآخرة وفي عائلته بان يقوم لها بما كانته به الشرائع من سد حاجاتها وان يسوي بين افرادها في المعاملة ، الا ترون قول النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله يأمركم ان تعدلوا بين اولادكم حتى في القبل) بل العدل لازم في كل اسباب المعيشة التي هي الصناعة والزراعة والتجارة والامارة الذي منه الرفق بالحيوان الاعجم ولو اردنا بيان كيفية العدل فيها لما اتسع له الوقت واجمع شيء في تعريف العدل هو ان ينصف الناس من نفسه فلا يفعل معهم الا ما يحب ان يفعلوا معه ومن العدل ايضاً معرفة الحق لاهله فان دعوى كل انسان ما ليس فيه يفسد نظام المجتمع اعظم فساد ومن تعاطى صنعة لا يتقنها او تقلد وظيفة لا يحسن القيام بها او لم يعرف لذي الفضل فضله ولم يحله في المنزلة التي يستحقها واخذ في انتقاصه او ادعى انه احق بشيء من صاحبه كان جاهلاً او حاسداً او غاشاً وكلها من دواعي الفساد . وفي الحديث (اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة) قيل وكيف اضاعتها قال بتوسيد الامر الى غير اهله . وسأل رجل علي بن ابي طالب رضي الله عنه لم انتقضت الامة عليك ولم تنتقض على ابي بكر وعمر فقال له لما كنت انا من رعيتهم انتظم الامر ولما صرت انت وامثالك من رعيتي صار الامر الى ما تقول اي ان علياً ومن كان معه زمن امارة الخليفتين كانوا يعرفون حق العمرين اما رعية علي فكان فيهم من لم يعترف له بالحق فلهذا انتقض امر الامة ووقع ذلك البلاء العظيم و يتعلق بالعدل ايضاً امور خاصة

كون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال
ما جاوزه فهو خروج عن العدل وذلك كما في الفضائل فانها هيئآت بين خلتين ناقصتين
افعال الخير توسط بين رذيلتين كالشجاعة فانها بين التهور والجبن والحلم فانه بين افراط
الغضب وعدمه كما اوضح ذلك علماء تربية النفس بما ليس هذا موضعه .

والرابع من الستة أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البريء
ويأنس به الضعيف .

والخامس خصب تتسع به النفوس ويشترك فيه الغني والفقير فيقل فيهم الحسد
وينتفي عنهم التباغض وتكثر المواساة والتواصل لان الخصب يؤول الى الغنى والغني
مورث الامانة والسخاء ان اقترن بعلم يهذب صاحبه ويعرفه مضار المال الذي لم يكتسب
من حله ولم يرد منه حق الله هكذا عد هذين الاثنين اعني الامن والخصب بانفرادهما
من اسباب صلاح المجتمع من تكلم في نظام المجتمع وانا أرى انهما ثمرة العدل ونتيجته
لا لزوم لعدهما سببين .

والسادس امل فسيح يدعو الانسان الى اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه فلولا
ان الاخير ينتفع بما انشأه الاول حتى يستغني به لافتقر اهل كل عصر الى انشاء
ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وغيرها من اراضي الحرث واشجار الثمر وذلك
لا تتسع له اعمارهم فلذلك من الله تعالى على خلقه باتساع الآمال فعمرت به الدنيا وعم
صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما ابقاه الاول من
عمارتها ويرمم الثالث ما احدثه الثاني من شعثها لتكون احوالها مدى الاعصار ملتئمة
امورها منتظمة ولو كانت الآمال قصيرة ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى
ضروري لوقته ولكانت تنتقل الى من بعده باسوء حال حتى لا ينمو فيها نبت ولا
يكن فيها لبث فعلى الناس جميعاً ان يتساندوا في نفع بعضهم بعضاً والسعي في استجلاب
الخيرات ودفع المضرات كل على مقدار طاقته فالخلق عيال الله واحب خلقه اليه انفعهم
لعباده وخير الناس انفعهم للناس وقد ظن بعض من ران على قلبه الجهل ان الانزواء عن
الخلق اسلم لدينه مع كونه قادراً على الاختلاط بهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر
فحسب ذلك يعود عليه بالثواب الجزيل ومن كان كذلك فهو كلٌّ على الهيئة الاجتماعية

وعضو اشل فيها ايظن هذا وامثاله ان عمل الصالحات المأمور به في الكتب السماوية هو عبارة عن الصوم والصلاة فقط كلا بل العمل الصالح اعم من ذلك يبتدئ باماطة الاذى عن الطريق وسقي الماء ولو على الماء ونظارة البساتين ورعي المواشي و ينتهي الى فك الاسير واغاثة الملهوف والاعانة بالنفس والمال وكل عمل تعدى نفعه فهو افضل من عمل المرء لنفسه ودليل هذا ما روي عن انس بن مالك رضي الله عنه انه ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجاً فكنا اذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله قال كلكم خير منه .

والخلاصة ان كل من عرف شيئاً فيه نفع للهيئة الاجتماعية مادياً او ادبياً وجب عليه استعماله في ذلك بنصح واخلاص ومن لم يفعل فقد خان النوع الانساني بل الدنيا باسرها لانه انتفع منها بالمأكل والملبس والمسكن ولم يؤد عن ذلك عوضا .

على ان التوغل في العبادة وترك التعرض للتجارب يورثان البله كما قال الجاحظ فقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير من المتوغلين فيها فاتاه يوماً عطاؤه وهو في المسجد فقام الى منزله ونسيه فلما صار الى منزله وذكره بعث رسولاً ليأتيه به فقال له واين نجد ذلك المال بعد ان تركته فقال سبحان الله او يأخذ احد ماليس له . وسرقت مرة نعله فلم يتخذ نعلاً حتى مات وقال اكره ان اتخذ نعلا فلعل رجلاً يسرقها فيأثم وقال الجاحظ ان الخلفاء والائمة افضل من الرعية وعامة الحكام افضل من المحكوم عليهم ولهم لانهم اقوم بالحقوق وارد على الناس وعلمهم بهذا افضل من عبادة العباد لان نفع هؤلاء لا يعدو قمم رؤسهم ونفع اولئك يخص و يعم والعبادة لا تورث البله الا لمن اكثر الوحدة وترك معاملة الناس ومجالسة اهل المعرفة فمن هناك صاروا بلهاً حتى صار لا يجيء من اعبدهم حاكم ولا امام .

واما ما يصلح به حال الانسان وحده فثلاثة اشياء (١) نفس مطيعة تأتمر بالرشد وتنتهي عن الغي (٢) والفة جامعة تتعطف عليها القلوب و يندفع بها المكروه وكفاية من العيش تسكن نفس الانسان اليها و يستقيم اوده بها . فاما الاولى وهي النفس المطيعة فانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته فاهلكته لانها كما قال تعالى (امارة بالسوء)

ولسنا الآن بصدد بيان وصول النفس الى تلك الرتبة العلية فانه علم تكفلت ببيانه الشرائع وافرد بالتأليف .

واما الثانية وهي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفاً مألوفاً تخطفته ايدي الحاسدين وتحكمت فيه اهواء الاعداء . واذا كان آلفاً مألوفاً انتصر بالالفة على اعاديه وامتنع من حاسديه ولذلك قيل المرء كثير باخيه وقال قيس بن عاصم:

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق و بطش أيد
عزت فلم تكسر وان هي بُددت فالوهن والتكسير للمتبدد

ولهذا قيل ان الله مع الجماعة او يد الله اي قدرته مع الجماعة ومن كان الله معه فلا يعجزه شيء الم تروا ان جماعة تضامت بالمعاونة فقاومت الجبال الشم بهممها وجعلت البحر براً مع بعد غوره وطوت السنين في ايام معدودة وافهمت من في المشرق كلام من في المغرب فكم بالجماعة من نفق فتح وجدول اسيل وسدّ نصب وطريق حديد مدّ وخط برقي سحب كل ذلك بفضل الجماعة التي دربها العلم فعلمها الجد في خدمة المجتمع الانساني ولو كان علم الشرقيين تاماً لما تركوا غيرهم يسبقهم الى تلك الخدمة الجليلة التي غزرت منافعها الادبية والمادية والاسف كل الاسف على هذه الحال فان مثلنا كرجل خزانته مملوءة بالنقود ولا ينتفع بها و يرى غيره يفتحها و يصرف منها وهو ساكن ساكت واذا كانت الالفة تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضى الحال ذكر اسبابها وهي خمسة (١) الدين (٢) النسب اي القرابة (٣) المصاهرة (٤) المودة (٥) البر . اما الدين وهو الاول من اسباب الالفة فلانه يبعث على التناصر و يمنع من التقاطع والتدابر . واما النسب ثانيها فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة و يمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقياً من تسلطهم عليهم وللنسب درجات تتفاوت الحمية فيها فدرجة الابوة اشد عطفاً من درجة البنوة والعصبات اعظم انفة وغيرة من ذوي الارحام والتوسع في بيان ذلك يخرجنا عن الايجاز المطلوب . واما المصاهرة ثالثها فلانها مواصلة صدرت عن رغبة واختيار وانعقدت على خير وائثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المناصرة . واما المؤاخاة بالمودة رابعها فلانها تكسب بصادق الميل اخلاصاً ومصافاة فيحدث بذلك وفاء

ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفتهم و يقوى تظافرهم ولتناصرهم وهنا كان يجب ان ننبه على شروط الاخاء وحقوقه لو كان في الوقت متسع . واما البر خامسها فلانه يوصل الى القلوب محبة و يثنيها انعطافاً فكم من عدو صار بالاحسان اليه صديقاً ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون عليه وقرنه بتقواه فقال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) لان في التقوى رضاء الله تعالى وفي البر رضاء الناس ومن جمع بينهما فقد تمت سعادته وعمت نعمته . ثم ان البر نوعان جود ومعروف فالجود بذل المال في الجهات المحمودة لغير غرض مطلوب والباعث عليه سماحة النفس وسخاؤها و يمنع منه شحها وابائها وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة . واما قول من قال الجود بذل الموجود فجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للاسراف وجود ولا للتبذير موضع وقد ورد الكتاب بذمهما واذا كان السخاء محدوداً كما ذكرنا فمن وقف على حده سمي كريماً ومن قصر عنه كان بخيلا .

واما المعروف فنوعان ايضاً قول وعمل اما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول قال عمر بن الخطاب يخاطب احد بنيه : بني ان البر شيء هين وجه طليق وكلام لين . ويجب ايضاً ان يكون محدوداً كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقاً مذموماً وان توسط فيه كان معروفاً و براً محموداً واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمال بالمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد .

واما الكفاية وهي آخر القواعد فلأن حاجة الانسان لا يعرى منها بشر واذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر عليه شيء منها لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر عليه منها لان كل قائم بغيره يكمل بكماله و يختل باختلاله . ثم لما كانت مادة الكفاية مطلوبة لاحتياج الكل اليها فقدت من غير طلب وعدمت من غير سبب واسباب المحبة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف في تحصيلها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها حتى لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يأتلفون و يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون .

ثم هداهم اليها بعقولهم واميالهم حتى لا يتكلفوا الائتلاف في المعايش المختلفة فيعجزوا . ثم ان الله تعالى جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين : بمادة وكسب . اما المادة فهي حادثة عن انتماء اصول نامية بذواتها وهي شيئان : نبت نام وحيوان متناسل واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدي الى الحاجة وذلك من وجهين نقلب في تجارة وتصرف في صناعة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة فمن خرج عنها كان كلاًّ على اربابها .

اما الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والاستمداد فيها اعم نفعاً ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وقال صلى الله عليه وسلم : (التمسوا الرزق في خبايا الارض) وقال كسرى لموبذ ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان تكون مطرة في نيسان . واختلف الناس في تفضيل الزرع او الشجر بما لا يتسع الوقت لذكره . والثاني من اسباب الكفاية نتاج الحيوان وهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا ما يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه وهو الحيوان ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وجدواه عليهم اكثر بنسله ورسله الهاماً من الله تعالى لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشاداً لعباده في قسمة المنافع بينهم . واما التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج وهي نوعان نقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر والثاني نقلب بالمال في الاسفار والاول قناعة واختصار والثاني اعم جدوى غير انه اعظم خطراً واما الصناعة فقد تتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم الى ثلاثة اقسام : صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين الفكر والعمل . اما صناعة الفكر فتقسم الى قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وهي الامارة والثاني ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وهذه هي الوظائف التي يقوم بها اولو العلم كالقضاة والاطباء وغيرهم .

واما صناعة العمل فتنقسم قسمين ايضاً عمل صناعي وعمل بهيمي والعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاناة في تعلمه وتصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية . والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة كذوي صنعة الحمالة واستخراج الحجارة . واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فتنقسم قسمين ايضاً احدهما ما تكون صناعة الفكر فيه اغلب والعمل تبعاً كالكتابة . والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعاً كالبناء فهذه احوال الخلق التي ركبهم الله تعالى عليها في ارتياد مواردهم ووكلهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسهم ليكون ذلك سبباً لالفتهم فسبحان من تفرد بلطيف حكمته واظهر فطننا بعزائم قدرته هذا واني وان اطلت فقد بقي من مهمات هذا البحث شيء كثير ربما اعود اليه اذا عادت لي النوبة في هذا الموقف والسلام عليكم .

سعيد الكرمي